الفصل الثالث
فجر المسلم المنتظر

- اليد الشريفة
- فجر المسلم المنتظر

اليد الشريفة

استلهامًا من "اليد الشريفة"
في رسالة المعجزات الأحمدية
للأستاذ النورسي في مجموعة "المكتوبات"

"اكتبوها بماء الذهب،
رصّعوا كلماتها بالماس،
واحتفظوا بها في شغاف القلب،
فهي بهذا جدّ جديرة"...
النورسي

في كفِّ محمد ﷺ خشع الحصى وسبّح،
ومن كفه سالت ينابيع الرحمة،
وأزهرت رياض المحبة...

وَهَوَانُ التراب عَزَّ في كفه،
وصغَارُ الطين امتلأَ شرفًا،
وصار ضعفُه قوّةً،
كقوة جيش عظيم...

والحصيات الباردات حين لامست كَفَّه،
استعرت لهبًا،
تحولت نارًا تلفح وجوه الأعداء،
ومعولاً تحطّم رؤوسهم،
وظلامًا يغشى عيونهم،
ورياحًا هوجًا تفري عظامهم،
وتفّرق جمعهم،
وتبدّد شملهم...

لا تعجبوا..
فيد الله فوق يده،
وقدرة الله تتفجّر حنقًا من بين أنامله،
﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنّ اللهَ رَمَى﴾...

يا حزن محمد ﷺ ويا أسى روحه،
كم هو خصبًا هذا الحزن،
وكم هو فاعلاً هذا الأسى،
حين يكذّبه الناس، تصدّقه الأكوان،
وحين يصمّون أذانهم عنه،
تصيخ إليه الأكوان...

وعندما يشير للناس أن «هلمّوا إليّ» فلا يستجيبون،
يومئ للقمر فينشطر شطرين،
وينشقّ شقين،
في لهفة وامق،
وطواعية مشتاق،
فيسجل القرآن ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ سلوةً وعزاء...

من أصابع كفّه يتفجر الماء السلسبيل،
ومن بين أنامله يدْفُقُ شهدُ الكوثر،
ويتساكب معين الحياة..
أيها العطشى، هلموا أشربوا..
أيها الظامئون، أقبلوا..
يا سرية الجهاد، هيا إلى الريّ والسُقيا..
انهلوا وعِلّوا من كفّ محمد ﷺ المبسوطة لكل الظامئين...

يا يد محمد ﷺ،
أيتها اليد الحانية الآسية،
يا بلسمًا لكل الجراح،
يا شفاءً لكل الأوجاع،
يا مسيل البركات،
ومجمع المعجزات،
ومصبّ قدرة الله،

وآية خوارقه...

كفّك المباركة،
زاوية ذكر مشرعة الأبواب،
لكل الصحاب،
والأحباب..
الملائكة تحفّها.،
والرحمة تغشاها..
مَنْ قاربها غلبه الشوق فسبّح،
مَنْ لامسها فاضَ وجدهُ فسبّح،
مَنْ دلف إليها واستقرّ بها هزّه الحنين فسبّح،
كل شيء عانقَ الكفّ سبّح،
حتى الحصى سبّح...

والكف المباركة نفسها حين يستفزها الأعداء،
تغدو على صغرها،
ترسانة سلاح..
سرعان ما تتطاير منها سهام الغضب الإلهي،
لتصيب مقاتل الأعداء..
وحتى ذرّات التراب،
وفتات الحصى،
تتحول سهامًا خارقةً،

تدمي القلوب، وتخرم الأرواح...

واليد نفسها تغدو رحمةً في مواطن الرحمة،
تصبح بلسمًا وشفاءً للمرضى والجرحى،
وينبوع ترياق،
تمسح الأدواء،
وتأتي بالشفاء...

وحين تنهض تلك اليد للمهام الجسام،
تحفها عظمة الجلال الإلهي،
وتواكبها هيبة الربوبية،
تشير إلى القمر فينشقّ طائعًا،
وينشطر شطرين،
ويتدلى حتى يصبح قابَ قوسين...

تلك هي يد محمد ﷺ،
موضع عين الله،
وساحة معجزاته،
وسماء أسنائه...

أية حظوة يتمتع بها لدى الخالق العظيم،
وأي صدق هو صدقه،

وأية دعوة -ترقى على الشبهات- هي دعوته...

طوبى لمن لامَسَتْ يدُهُ يدَ محمد ﷺ،
وهنيئًا لمن شَرُفَ بمصافحة هذه اليد المباركة،
ويا سعادة من عانقت أكفهم كفّ محمد،
ويا فرحة مَنْ التصقَتْ راحته براحة محمد ﷺ،
فبايعه على السمع والطاعة،
في المنشط والمكره...

فجر المسلم المنتظر

في الحديث الشريف: «إنّ بلالاً يؤذّن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أمّ مكتوم»[١١٣] أو كما قال ﷺ. وقد أخذ النورسي -رحمه الله- المعنى الإشاري لهذا الحديث، وحذّر طلبته من أن تختلط عليهم الأمور فلا يعودون قادرين على التمييز بين فجرهم الكاذب وفجرهم الصادق.[١١٤] فأفكار هذا البحث تدور حول المعنى الإشاري الذي فهمه النورسي من الحديث الشريف.

١

في خيال الأمة وفي عمق ذاكرتها التاريخية يقوم مثال عظيم للمسلم الحق كما ينبغي أن يكون، وكما يُشخّصه القرآن الكريم، وترسم ملامحه وسماته السنة النبوية المطهرة.

وبين زمان وزمان يبرق هذا المسلم المثال في سماء الأمة مضيئًا آفاقها، ومنيرًا روحها ووجدانها، وما يكاد ضوؤهُ يتحسّس مواقع الظلام في جوانب حياتها، حتى تعصف به رياح الشر وتدفع به بعيدًا عن حياتها وواقعها المعيش.

---

[١١٣] رواه البخاري، رقم الحديث: ٦٢٢، ٦٢٣، ١٩١٩؛ ورواه مسلم، رقم الحديث: ١٠٩٢/٣٦-٣٨.

[١١٤] يقول النورسي في الخطبة الشامية: "إن المستقبل الذي لا حكم فيه إلاّ للعقل والعلم سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامه إلى العقل والمنطق والبرهان... وها قد أخذت الحجب التي كانت تكسف شمس الإسلام تنزاح وتنقشع، وأخذت تلك الموانع بالانكماش والانسحاب، ولقد بدأت تباشير ذلك الفجر منذ خمس وأربعين سنة، وها قد بزغ فجرها الصادق سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف أو هو على وشك البزوغ، وحتى إن كان هذا الفجر فجرًا كاذبًا فسيطلع الفجر الصادق بعد ثلاثين أو أربعين عامًا إن شاء الله".

ولأن قوة روحية هائلة ينطوي عليها هذا المسلم المثال، ولأن أفكارًا نهضويّة وحضارية تسكن عقله، وتَعْمرُ وجدانه، لذا فقد بذلت جهود مضنية للحيلولة بينه وبين العودة الأبدية إلى حاضر الأمة من جديد، وعُمِدَ إلى قطع الجسور والمعابر، ووضع العوائق والحواجز في طريق عودته المنتظرة، ونُفِثَ في روع الأمة بأن مثال المسلم الحق الذي عرفه ماضيها وسعد به تاريخها نموذج مضى وانقضى ولا يمكن أن يتكرر أو يعود.

٢

غير أن استدعاء هذا المسلم المثال من ذاكرة الأمة التاريخية ظلّ طوال هذا القرن هاجس المعنيين بشؤون عقلها، وشؤون إيمانها وإسلامها من العلماء والمفكرين. فما فتئوا يستدعونه بأفكارهم، ويهتفون به من خلال أقلامهم، ويحثونه للنهوض من بين طوايا الزمن العتيق ليصهر بلهب روحه جسد التاريخ الذي يسكنه، ويتحرر من قبضته، ويعود طاقة حياة في حاضر الأمة. يمدُّ شرايين عقيدتها بالدم الذي كاد ينضب فيها لتعود تحيا من جديد بكل أعماقها الإيمانية وأبعادها الإسلامية.

٣

وقد اختلفت وجهات النظر حول الأسباب التي تحول بين المسلم المثال وبين أن يكون له حضور دائم في واقع الأمة، وكذلك اختلفت الأفكار في الأسلوب الذي ينبغي سلوكه للانتقال به من ذلك الوجود الظلي في تاريخ الأمة ووجدانها إلى وجود حقيقي حسيّ ملموس يشاهدُ

عيانًا بلحمه ودمه في واقعها المعيش.

ونشأت تبعًا لذلك مدارس فكرية متشعبة الاتجاهات، ومختلفة الأساليب في استدعاء هذا المسلم المنتظر؛ فمنها ما يرى -كـ"جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨- ١٨٩٨م) ومدرسته- أنّ المسلم المثال لا يولد إلا تحت ظلال السيوف ومن خلال الثورة والعنف، بينما يرى "الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م)" رفيقه في الجهاد، أن المسلم المثال يصنعه الفكر وتبنيه الثقافة والعلم، وآخرون يرون أن التربية الإيمانية، والتهذيب الخلقي هو السبيل إلى مجيء المسلم المنتظر، وآخرون يرون في هذه المدارس كلها شيئًا كثيرًا أو قليلاً من الحق، إلاّ أنه ليس هو كل الحق الذي لا حقّ قبله، ولا حق بعده.. وربما يولد المسلم المنتظر من أحشاء هذه المدرسة أو تلك، ولكنه حين يولد ينمو بسرعة هائلة، وتمتد ذاته وتتسع إلى حدّ الانفلات من محدوديات هذه المدارس جميعًا، والارتفاع فوقها، لأن الإسلام نفسه أوسع وأعظم من أن تحتويه مدرسة فكرية واحدة، أو تستوعبه عشرات المدارس بل مئاتها.

٤

والمسلم المنتظر وإن كان قد أظلّ زمانه، واقتربت ساعته، وتراءت إرهاصات قدومه، إلاّ أنه لم يولد بعدُ، لأن فجر مولده الصادق ما زال يشقّ طريقه بصعوبة بالغة في شعاب ليل مدلهم، وما يظنُّ أنه فجره وصبحه فهو وهم ينبغي ألاّ يقع فيه ذوو الحصافة والحكمة من العلماء.

فصياح الديكة في موهن من الليل لا يعني أنّ فجر الصحوة المنتظر، فجر "الله أكبر" قد أضاء الآفاق ومسح الليل من فوق الأرض.. فما بين

الفجر الكاذب والفجر الصادق أمَدٌ يطول ويقصر، إلاّ أنه ينبغي أن يُحْسب حسابه، وألاّ يتعجّل قدومه.

والنورسي رحمه الله كان قد انتبه إلى هذا وحذّر طلابه من الوقوع في هذا الوهم الفاجع الذي يجرّ على المسلمين المزيد من الكوارث والآلام.

فالطبيب يرتكب خطأً قاتلاً حين يوحي إلى مريضه بالشفاء بينما ما يزال المرض يفتك به بصمت وخفاء.. وعلماء الإسلام المؤتمنون على صحّة المسلمين الإيمانية يرتكبون الخطأ القاتل نفسه حين يُوحُون إلى أتباعهم بأنهم يحيون فجرهم الإيماني الصادق، بينما ما تزال بقايا من عتمة الليل تغمر عيونهم وتمنعهم من القدرة على دقة النظر ووضوح الرؤية، فيقعون في مطبّات فكرية وعقيديّة وربما سلوكية تجرهم إلى مزيد من اليأس والإحباط.

فنحن -في الحقيقة- جيل الغبش. نصْفنا في النور ونصفنا الآخر في الظلام.. نتلمس طريقنا في بقايا عتمة مضت ولوامع فجر لمّا يجيء بعدُ، فنخطئ مرة ونصيب أخرى، نتأرجح بين الحكمة والجهالة، ونتردد بين التعقل والحماقة، نعقل مرةً ونتوكل، ونجنح للمغامرة بكل شيء مرات أخر. يتقاسمنا الموت والحياة، وكالنار يأكل بعضنا بعضًا، فنحن المطرقة والسندان، ونحن النار والهشيم، ونحن العاصفة الهوجاء والريح الرخاء، ونحن التفجع الباكي الوجيع، والفرح الإلهي النبيل، ونحن بعد هذا وذاك النفق الخطر المليء بالآلام الذي لا بد من أن يجتازه "المسلم

المنتظر" في طريق عودته إلى حاضر الأمة وواقعها من جديد، متجاوزًا عمّا فينا من النقائص والأضداد، ومرتفعًا فوق أخطائنا ونقائصنا، ومتعاليًا فوق صغارنا وضعفنا.

فـ"رسالتنا" لا بل "هدفنا" القدري المرسوم -نحن أبناء هذا الجيل- هو التمهيد لقدوم مسلمنا المنتظر... في طريقه نفرش مُزَعَ أرواحنا، ونثار قلوبنا، ومن أجله نتحمّل آلام الاغتراب عن عصرنا، وفي سبيل مقدمه نصبر على ما يُصَبُّ في حلوقنا من مرارات.

اختارنا القدر -على ما فينا من عيوب- مَعْبَرًا يعبر من فوقنا حين تدق ساعته، ويأزف فجر قدومه... فنحن الفداء لمقدمه، وعلينا أن نتوارى بصغارنا أمام عظمته... ولا بأس من أن ننسحق حتى العظم تحت قدميه الواثقتين، وسوف نلقي بكل ما كتبناه وقلناه ووعظناه في قرن من الزمن في قبضة يده، ليغربله بغربال عقله الحصيف، وينقّيه مما خالطه من شوائب.

٦

لقد مات فينا -للأسف الشديد- أرهف ما للفكر الإيماني من ذكاء، وأعمق ما له من أغوار، وامتصّ الزمن العقيم ماء وجودنا حتى الجفاف. فلم نعد قادرين على ممارسة التفكير الحر فيما يعنّ لنا من قضايا الإيمان. واختلطت بين أيدينا أوراق الفرق الإسلامية، ومذاهبها الفكرية، والْتاثتْ علينا الأمور، واختلط حابلها بنابلها، وصحيحها بسقيمها.. ورغم كل ما حشدناه من شتيت الأفكار، ومن مختلف التجارب الإيمانية عبر الزمن، فإننا ما زلنا نفتقر إلى نظرية في المعرفة يمكن أن نرجع إليها في ضبط أفكارنا وتوحيد أذهاننا، أو امتلاك ملكة نقدية شجاعة لا تهاب أن تعطي

رأيها صريحًا بأخطاء أيّ منّا مهما علا صوته، وارتفع شأنه.

ورغم هذه السلبيات الخطيرة التي تغشى فكرنا الإيماني، وتجعلنا عاجزين عن تلمس طريقنا في شعاب هذا العالم ولو بقليل من المزالق والأخطاء، فإن البعض منا ممن طال عليهم ليل الانتظار يقعون في الخطأ المؤلم بحسبانهم بعضًا من لوامع الأضواء المرتعشة فوق صفحة الليل بين حين وآخر، هو ما ينتظرونه من خيوط الفجر الإسلامي المرتقب، وفي غمرة انتشائهم بهذا الوهم يتصرفون وكأن شمس الإسلام باتت وشيكة البزوغ، فيسرعون إلى إطفاء ما كانوا أشعلوه من قناديل بزيت أرواحهم ترقبًا لشعلة أكبر وأعم هي شعلة الشمس الوشيكة، وربما استخفهم الفرح فاعتلوا المنائر وأذّنوا للناس ولمّا يدخل وقت الفجر بعدُ.. وهذا الذي حذّر منه النورسي رحمه الله تعالى، لأنه خطأ تتبعه سلسلة من الأخطاء المفجعة التي تورث الآلام والحسرات.

وحين يَقدُم "المسلم المنتظر" ويبزغ فجر مولده الصادق فإنه سيمر ببلسم روحه فوق جراحات جيل العبور وآلامه. إلا أنه لن يهدر لحظة واحدة من عمره النفيس في النواح على هموم هذا الجيل الجزئية والفرعية، لأنه يدرك بنفاذ بصيرته ما يتهدد المسلمين في وحدتهم الروحية الكبرى، وما يراد لها من التفكك والتشرنق والتمذهب، مما يجعله يكرس جهوده بأسرها من أجل الدفاع عن هذه الوحدة التي فيها حياة المسلمين ومجدهم وقوتهم.

٧

وفي زخم اكتساحه الباسل المقدام للحواجز والسدود بينه وبيننا فإنه

سيدفع بموتى النفوس منّا إلى ذلك الغثاء البشري الذي يحمله السيل بعيدًا عن ذرى التاريخ الذي يريدنا أن نحيا متربعين فوقها.

من فمه تنطلق كلمة الحق القرآني قوية مجلجلة، تصك أسماع الباطل، وتهزّ أركانه وعروشه، وفي يده حصاد قرن من الزمن من معاناة الإيمان وتجاربه المضنية مع انحرافات العصر وتأبيه على الصلاح والاستقامة. أما روحه فهو بالغ القوة هائلها بما يُصبُّ فيه من دفق الإيمان الموار بالحياة.. وأما عقله فهو وهج فكري يتفجر بشرارات الأفكار التي تحيل بقايا العتمة في عقولنا إلى نهار ضحيان.. ومن مهماته إيقاظ الشعور بالجانب الإلهي فينا، وتنشيط ما ذوى من آمال في استئناف حقبة إيمانية جديدة تزخر بمعطيات الإيمان من الحق والعدل والخير والجمال.

وهو حين يشقّ طريقه إلينا بسيف فجره الإيماني الصادق، فإن كثيرًا من سيوف الظلام ستتهاوى يائسة متعبة، وستجثو على أعتابه منخلعة من ظلام الفكر ومادية القلب إلى ينابيع فجره. ولكن حين يسقط سيف إيمانه -لأي سبب كان- من شاهق روحه ليقع في قبضة يده في محاولة لمخاطبة الناس بلسانه القاطع الحادّ فإنه يفقد بذلك بلاغته الروحية، وينسى لغته السماوية التي تنفذ -دون استئذان- إلى قلوب الناس وعقولهم، فيخطئ الناس الفهم عنه، وهم إذا فهموا فلا يفهمون إلا بعض الحق الذي يريد أن يقوله، بينما يظلّ الحق كل الحق غائبًا عنهم، غير مفهوم لديهم. وبالتالي فإن السيف يمكن أن يحملهم على الانصياع والاستسلام، ولكنه يصعب أن يحملهم على المحبة ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(الْحُجُرَات:١٤).

٨

فالروح القوية للمسلم المنتظر تصهر بلهبها سيف كلَّ من يدعوه للمبارزة.. وعقله المؤمن الكبير يغدو في ساعة الحسم أقوى من أي عقل ينازله.. ولعمق صلته بالقرآن فإن إحساسه بكونية وجوده يمنحه قوة معنوية خارقة قادرة على الإتيان بخوارق الفعال... وفي المكان الأعلى من نفسه يصبّ دفق كوني يجعله يحسّ بالزمن -ماضيه وحاضره ومستقبله- وكأنه حاضر مستمر في حضوره اللانهائي، وأن الأبدية قد آوت إلى ذاته، فهو يحياها ويطعم مذاقها قبل أن يمضي إليها في خاتمة عمره. أما نفسه النقية الصافية فهي مصبّ أنوار أسماء الله الحسنى التي تنتظم العالم بأسره، وتقوم بإمداده بالحياة والوجود.

فمن كان هذا شأنه وتلك صفاته فكيف لا يرثي لمن يسعى لإيذائه، أو الوقوف بالضد من رسالته؟ وأيّ سيف فرعوني يمكن أن يحُول بين "عصا موسى"[١١٥] وبين فعلها الإعجازي والإيماني في جموع الناس من حولها؟

وهو حين يقدم فإن عالما إيمانيًّا رفيع الذرى سينهض من جديد من خلال رماد الأرواح المحترقة، والقلوب المنسحقة.. وإن المبادئ الكبرى التي دُفعت خارج الزمن لكي تنسى وتموت ستجد في أنفاس روحه العظيم ما يبعث فيها حسّها الزمني، ويعينها على النهوض لتلتقي حياتها، وتعانق وجودها، في لُبّ حياته، وجوهر وجوده.

أما المعرفة التي سيعتمدها في تشكيل عقله الإيماني فإنها تستحيل إلى معرفة وحياة معًا، لأن الإسلام لا يعرف الانفصام بين المعرفة والحياة،

---

[١١٥] "عصا موسى" اسم لإحدى رسائل النور للنورسي.

ولا يعرف الصراع بين الكتاب -القرآن الكريم- من جهة، والذات القارئة من جهة أخرى. ولأن الإيمان الصادق يرفع الذات أو الـ"أنا" إلى مرتبة الوجود الاندفاعي بين الذي نقرأه ونعرفه، والذي نحياه ونعيشه.

٩

لذا فهو لا يعرف التوقف عند مرتقى معين من المرتقبات المعرفية، بل هو علو مستمر، يرتقي نفسه ويعلو عليها، يدفعه إلى ذلك حنين وثاب، وعطش لا يرتوي إلى الحياة المتدثرة بأسرار الخلق والإيجاد... ففي الحياة -هذا البحر الإلهي المتدفق دون توقف- يلتقي المؤمن أعمق أعماقه، وأعلى عليّينه، ويجد في شعاب أسرارها مصرفًا لنوازعه الحبيسة العطشى إلى الحقيقة التي تغلي بها روحه، ويفور بها عقله.. فكلما ازداد فهمنا للحياة ازدادت معرفتنا بالله تعالى، وازداد قربنا منه وحبّنا له، وتقديسنا لعظمته وقدرته.. لأن الحياة مرآة تعكس آثار أسماء الله الحسنى الجلالية والجمالية وفاعليتها في الكون والكائنات، كما يشير إلى ذلك النورسي في رسالته القيمة "الاسم الأعظم".

فلمحة من لمحات معرفته جلّ جلاله، وومضة من ومضات تجليه علينا من خلال هذه المعرفة، تنسينا كل ما عانيناه من آلام البعد والجفاء في سنوات العقم المعرفي والجدب الإيماني.

فالمسلم المنتظر يجيء -حين يجيء- بدراية حياتية، يغالب بها ويغلب أية طاقة موت يمكن أن يواجَه بها.. فهو ليس مأساويا يصنع المأساة ثم يجلس على أنقاضها ويكثر من التفجع والبكاء والعويل. بل يزرع الفرح والحياة أينما مرّ وفي أي مكان ألقى عصا ترحاله. لأن الحياة هي الأصل،

والموت هو الاستثناء، وكما لا يريد لوجوده الفناء فإنه لا يريد أن يفني وجود الآخرين، لأن حق الحياة مكفول لجميع البشر من واهب الحياة سبحانه وتعالى كما يقول النورسي.

ورغم أن الموت هو جزء من الحياة وليس مضادًا لها لأنه الواسطة بين المتناهي واللامتناهي، والمحدود والمطلق، والزائل والأبدي، إلا أنه ليس من حقّنا أن ندفع إليه الآخرين دفعًا، أو نجرّع كأسه للآخرين عنوةً مهما كانت الأسباب والمعاذير.. وإن من الخطورة بمكان على دعاة الإيمان أن يشير الناس إلى سيف الإيمان قائلين: "انظروا، إنه خال من أي نُبلٍ روحي.!".

ولو أصغينا جيدًا لما يقوله "المسلم المنتظر" من بين كلمات رسائل النور لسمعناه يقول بلسان الحال: "ليس الدّم ما نريد، بل نريد القلب المعمور بهذا الدم.. وليس للموت جئنا بل جئنا للحياة.. ولا نريد أن نقتنص أرواح الناس، بل نريد لهم أن يسلّموا إلينا أرواحهم وعقولهم طواعية وعن طيب نفسٍ منهم لنرتفع بها إلى أعتاب الرضى الإلهي، والقبول الرحماني، وإن كنا نسعى لتعميق نزوعهم الفطري نحو اللانهائي الأخروي، فليس ذلك من أجل الفناء فيه، بل من أجل الظفر به".

١٠

فنحن أمة كتاب أولاً وآخرًا، لا نبغي عنه حولاً، ولا نبتغي القوة في غيره، ولا النصر في سواه، لن نستبدل به سيوف العالم كلها...

أول كلمة فيه لامست قلب محمد ﷺ هي كلمة ﴿اقْرَأْ﴾... فبالقراءة نكوّنُ العقول الأرقى التي تفهمنا، ونصنع النفوس الأرفع التي تطال

نفوسنا، ونهذب القلوب الأرهف التي تفهم عنّا وتدرك مراميها، وبنوره نُواجِه عواصفَ العماء المطلق العنان الذي يريد العصف بنا، وإطفاء شعلة إرادتنا في تشكيل مستقبلنا وفق ما يريده كتابنا.

وبالقراءة نفتح أجفان السيوف لتبصركم في ضعفنا الظاهر من قوة تتواضع قوة السيوف إزاءها.. وكم في مواتنا البادي من حياة تُخجل عنفوان كل حياة، وكم يرقد في أشلاء نفوسنا المبعْثرة هنا وهناك من طرق الإيمان وشعابه من وحدة مصير متوثب، ووحدة تاريخ ينتظر ساعة قيامه...

فإذا ما انشق فجر المسلم المنتظر، وتفتح في صور القيام انتفضت أرواحنا الهاجعة، وانشدّت إلى أرقى ذرى اليقظة والصحو الإيماني المرهف، وانفتحت عيون عقولنا لتبصر قصور الفهم البشري وتخلفه عن الارتقاء إلى المعاني السامية التي يدعو إليها الإيمان، فندعوه -بالكلمة- ونهتف به -بالكتاب- ليرتقي إليه، ويلامس معانيه، ويتشرب من معينه ما يروي ظمأ غلته.

ولو شئت أن أصف "المسلم المنتظر" وأوجز، وأن أشير إليه وأومض لقلتُ:

إنه "مكّي"[١١٦] بسورة إيمانه، وعمق عقيدته، وفي تحرّره من "الصنَمية" بجميع أشكالها وأنواعها، وبتأجيج روح الكون في روحه، وبتحرره من ثقله الكتلوي وصيرورته طاقة حية يحركها حنين لا يقاوم للاندفاع نحو أعتاب الحضرة الإلهية، وتسليمه كلية وجوده إليه سبحانه وتعالى...

---

[١١٦] إشارة إلى البدايات الأولى للدعوة الإسلامية في مكة المكرمة.

"مدَنيّ"[١١٧] في إرساء هذا البناء الإيماني الشامخ على قواعده الشرعية، وأسسه العملية في التعامل مع الحياة والمجتمع...

"بدْريّ"[١١٨] في شجاعته وفي توكله على الله ورجائه النصر منه وحده...

"حُدَيبيّ"[١١٩] في حِنْكته ومرونته وقدرته على التعامل مع الآخرين أخذًا وعطاءً من دون المساس بثوابت الإيمان والعقيدة...

"شوريّ"[١٢٠] فيما يتخذ من قرار ويقدم عليه من فعل...

وهو بعد ذلك الذي قلناه في وصفه يرفض أن يدفن نفسه في المحدودية الضيّقة، وأن يغلق على ذهنه نوافذ الانفتاح على عوالم الأفكار والثقافات المختلفة، غير أنه يظل متماسك الروح إزاءها، ومتّحد الذات في مواجهتها، وهو بما له من حدّة فهم شمولي، ومن نفاذ بصيرة خارقة، قادر على أن يلتقط من أحشاء "الخطأ" شيئًا من الصواب، وأن يتلمس في باطن "الباطل" حبةً من الحق، من حيث أنّ "الحق" هو أصل الخليقة، والصرح الذي يقوم عليه الوجود، وتنبثق عنه الحياة، بينما "الباطل" طارئ على الوجود، ليس له قوة الحق ولا أصالته، ولا عمقه في الكينونة البشرية..

فله -أي الحق- الهيمنة المطلقة النفاذ في كل شيء.. فكما أن الهواء

---

[١١٧] إشارة إلى ما طرأ على الدعوة الإسلامية من تطوّر عند انتقالها إلى المدينة المنورة.

[١١٨] إشارة إلى شجاعة الرسول ﷺ في مواجهة الأعداء على كثرتهم ورجائه النصر منه تعالى وحده في معركة بدر الكبرى.

[١١٩] إشارة إلى حنكة الرسول ﷺ ودبلوماسيته العالية في إبرامه لصلح الحديبية الذي كان من ثماره فتح مكة بعده بقليل.

[١٢٠] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(آل عمران:١٥٩).

النقي لا يعدمُ مدخلاً تنفذ منه بعض من جزئياته إلى أغاليط العقل، وأباطيل المذاهب والفرق كما هو مشاهد في الفرق الإسلامية المنحرفة، فإنها لا تخلو من شيء ما من "الحق" مهما كان ضئيلاً، فقد يكون فيها حبة أو جزئية منه. وهذه الحبة أو الجزئية تعطي لباطل الفرقة أو المذهب صورة -ولو شاحبة- من صور "الحق" تغري الناس باتباعها... وقد نبه النورسي رحمه الله إلى هذا، قائلاً في مخاطبة كل مَن يطلب الحقيقة ويبحث عنها:

"يا طالب الحقيقة:

إن الشريعة تنظر إلى الماضي وإلى المصيبة غير نظرتها إلى المستقبل وإلى المعصية..

إذ تنظر إلى "الماضي" وإلى المصائب بنظر القدر الإلهي. فالقول هنا قول الجبرية...

أما "المستقبل" والمعاصي فتنظر إليهما بنظر التكليف الإلهي. فالقول هنا قول المعتزلة...

وهكذا تتصالح الجبرية والمعتزلة.

ففي هذه المذاهب الباطلة تندرج حبة من حقيقة لها محلها الخاص بها. وينشا الباطل من تعميمها"[١٢١].

---

[١٢١] الكلمات (اللوامع)، سعيد النورسي، ص:٨٥٢.

١١

وليس كالمسلم المنتظر إنسان يطلب الحقيقة ويبحث عنها ويعاني من أجل اكتشافها أشد أنواع الحميّات الروحية، والقشعريرات الفكرية، ويكدح كدحًا عظيمًا لكي يضعها في الضوء المنظور تحت أبصار الآخرين. فإذا ما التقطها ذهنه اللمّاح قدّمها للآخرين كأجلى ما تكون الحقيقة، وكأعمق ما تكون عقلانية، وكأوضح ما تكون نقاءً وصدقًا.. فلا يبقى أحد ممن يهمه الإيمان والإسلام إلاّ ويجد صدى ذهنه الجبار في عقله وفكره.

فكينونة المسلم المنتظر لا تعمق وتصلب وتصبح قادرة على إحضار الزمن العظيم المولود من أجله إلاّ بقدر ما يحسن من الفهم ويعالج من التفكير. حتى إنه ليغدو مع الزمن مركز التوحيد الروحي الذي يبعث إلى العالم كله بأفكاره ورسائله.

فالحضارة الإيمانية المرتقبة لا تولد إلاّ من خلال جيشانات روحية وفكرية عظمى، وهي ما ينتظره العالم منه حين ينشق فجره.

١٢

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن "الفكر" وحدهُ يظلُّ طاقةً معطلةً وباردة ما لم تسنده إرادة قوية تتوقد حيوية، وتستعر توثبًا.. فالحياة الإيمانية يمكن أن تنكفئ وتتوقف عن النموّ والسعة من دون ما فكر يرفدها، ولكنها تصاب بالشلل والكساح وربما الموت من دون ما إرادة تحرك مفاصلها وتدير دواليب حركتها. فالإرادة تبتعث الفعل البطولي داخل النفس، وتفجر الطاقات الإيمانية والإمكانات الفكرية، لا بل هي التي

ترسم مسارات التاريخ وتقيم صروح الحضارات.

فإرادة المسلم المنتظر سوف تصارع الإرادات المناوئة لها من أجل أن تلقي بالزمن الخاوي وتطرحه بعيدًا خارج حياة المسلمين، ومن أجل أن تشعل فتيل إرادة فهيمة في نفوسهم تستدعي بقوة عالم الإيمان الأرقى والأخصب بإيقاظ ما غفا من أحاسيسه في أعماق خيالهم وذاكرتهم التاريخية.

فكل ما كنّاه -خلال هذا القرن- من زوغان نظر، وشتات فكر، وتيه هدف، ينبغي ألاّ يوقفنا عن محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بين ألسنة هذا الحريق الهائل الذي يجتاحنا ويأكل أرواحنا، بل ينبغي أن يحفّز الهمم، ويقوي العزائم من أجل ما نريد أن نكونه في حاضرنا ومستقبلنا... فنحن مسكونون بقوّة خطرة غير منضبطة ولدتها في نفوسنا مرارات السنين، وإخفاقات قرن كامل من الزمن، فما لم يشرق فينا وعيٌ قرآني يمسك بعنان هذه القوة الخطرة فإنها مرشّحة لتدمير ذاتها وتدميرنا معها تدميرًا نهائيًّا.

فنحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى من يرتفع بهمّته ويعلو بعبقرية حكمته فوق أصوات الدم الفائر، ونداءات الـ"أنا" المتشنجة، وأن يقف قبالة سيف الحق ويخاطبه بأعلى صوته قائلاً: "أيها السيف النوراني الطاهر! نزّه نفسك، وطهر نصلك، وعُد إلى غمدك، وليعد إليك وقارُك ونُبلك.. فليس هذا اليوم يومك، ولا هذا الفجر فجرك.. ففجرك لمّا يبزغ بعدُ، ومسلمك المنتظر لمّا يطلّ بعد"..

وكأن النورسي رحمه الله كان يتوقع استعجال المسلمين لفجرهم الصادق، وتورّطهم فيما لا ينبغي أن يتورطوا فيه من أخطاء فقال معلمًا:

"إن التضحية بالأكثرية ليس من سنن الإسلام.. فعدالة القرآن الكريم لا تضحي بحياة برئ واحد، ولا تهدر دمه لأي شيء كان، لا في سبيل الأكثرية، أو لأجل البشرية قاطبة.. إذ الآية الكريمة: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(الْمَائِدَة:٢٣) تضع سرَّين عظيمَين أمام نظر الإنسان:

السرّ الأول: العدالة المحضة: ذلك الدستور العظيم الذي ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة، فهم سواء في نظر العدالة الإلهية، مثلما أنهم سواء في نظر القدرة الإلهية، وهذه سنّة دائمة. إلاّ أن الشخص يستطيع -بدافع من نفسه- أن يضحّي بنفسه من دون أن يُضحى به قطعًا، حتى في سبيل الناس جميعًا، لأن إزهاق حياته وإزالة عصمته وهدر دمه، شبيه بإزالة عصمة الناس جميعًا وهدر دمائهم جميعًا.

والسر الثاني: لو قتل مغرور بريئًا دون ورَع، تحقيقًا لحرصه، وإشباعًا لنزواته وهوى رغباته، فإنه مستعد لتدمير العالم والجنس البشري إن استطاع"[١٢٢].

---

[١٢٢] الكلمات (اللوامع)، سعيد النورسي، ص:٨٦٢.

الاختتام

الذين عرفوا "النورسي" وقرأوا فكره، وتابعوا فتوحاته الإيمانية في رسائله "رسائل النور"، يبدون لأول وهلة وكأنهم مأخوذون بما قرأوا.. وكثيرًا ما أُفاجَأُ بقول أحدهم أنه مدين للنورسي بيقظته الذهنية المفاجئة، ومدين له بتحريك مشاعره الإيمانية، وتحفيز ما كان ساكنًا من قواه الروحية المعطّلة؛ وأنّ "النورسي" قد استحوذ عليه كليًّا وأخذه بعيدًا جدًّا ثم ألقى به من شاهق في فضاءات إيمانية عظيمة السعة، وعميقة الغور.. حتّى أن الحياة لاحت له وكأنها في غاية التفاهة و"اللامعنى" إذا ما أراد مغادرة هذه الفضاءات، أو النفاذ من أقطارها إلى الخارج، وهذا الخارج يعني الذهاب إلى المجهول، والضياع في المعلوم، والرعب من المقدور.

فالأعجوبة الفكرية في هذه الرسائل مكرَّسة لتنقية الذهن من المخلفات العتيقة إلى الحد الذي يجعله ينغمر في كوثر تطهيري لكي يروح بعد ذلك في صلاة ذهنية دائمة وسجود روحي أبدي لا يقوم منه حتى يلاقي ربّه.

فالتجديد في منهج "النورسي" الدعوي، وفي أساليب تناوله لكبيرى قضايا الإيمان والإسلام يُخرج المسلم من دَوَّامة المكرور والمعاد في الفكر والحياة، ويُنقذه كذلك من دَوَّامة السأم والملال الذي يَشُلُّ الفكر، ويَسُدُّ منافذ الروح دون انطلاقها إلى مرتقيات أعلى وأسمى.. ففكر الرجل فيه من الحوافز الجديدة ما يستثير نوازع التغيير والتجديد، والاستنهاض

الدائم والحراك الدؤوب، وعدم الوقوف عند مرتقى إيماني محدود، أو فكر تقليدي مغلق. فهو لا يربِّت على العقول النائمة؛ بل يهزّها لتستيقظ من نومها، ولا يهدهد الروح لتستنيم، بل يمطرها بوابل من صواعق روحه كيما تستعر وتلتهب وتضيء وتنير، ويزيد إدراكها وتتّسع رؤاها.

فالمسلم اليوم يقف على حافة خطر الإهمال من قبل شعوب الأرض، فما لم يُثبت أهميته ويُبرّر وجوده كعنصر مهمّ في النوازن البيئي الفكري والروحي فإنّه يسظلّ في مؤخرة الشعوب.. فكما أن علماء الطبيعة يحرصون على التوازن البيئي على هذه الأرض لتجنيبها من الكوارث الطبيعية، فكذلك فإن أصحاب الرسالات الكبرى يحرصون على موازنة البيئة الفكرية والثقافية والحد من وقوع ثقافات الشعوب في منزلقات جحودية محفوفة بالمخاطر.. فالمسلم بما يمتلك من عقيدة وتراث روحي عظيم يشكل عنصرًا من عناصر توازن البيئة الفكرية والروحية والحفاظ عليها من التعرض لأنواء مدمّرة للفكر والروح.

وإذا كانت "النبوة" قد ختمت بمحمد ﷺ ولم يعد العالم يستقبل اليوم أنبياء، غير أنه سيظلُّ يستقبل أفواجًا ممَّن هم على قدم الأنبياء والمرسلين.. وإذا صحَّ حديث "علماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل" فهذا يعني أنّ العلماء ورثة إرث الأنبياء والمرسلين، وأنهم يؤدُّون رسالة الأنبياء والمرسلين في الإرشاد والتبليغ للبشرية في عصورها متعاقبة.. فتعاليم الأنبياء والرسل تبدو اليوم أكثر احتياجات البشرية وأكثرها لزومًا لها من أي وقت مضى.. و"النورسي" رحمه الله واحد من هؤلاء العلماء الأفذاذ الذي تشكل أفكاره "في رسائل النور" منبعًا ثرًّا من منابع الهداية والإصلاح وابتعاث الحيوة الإيمانية من أقصى أقاصي الروح والفكر والإبقاء على توهجها، والحفاظ عليها من الخفوت والانطفاء.

كليات رسائل النور للأستاذ بديع الزمان

١- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز

٢- المثنوي العربي النوري

٣- صيقل الإسلام

٤- الملاحق

٥- المكتوبات

٦- الشعاعات

٧- الكلمات

٨- سيرة ذاتية

٩- اللمعات

قراءات في رسائل النور

١- السنة النبوية.. سنة كونية وحقيقة روحية / أديب إبراهيم الدباغ

٢- أديب الإنسانية / د. حسن الأمراني

٣- حقيقة مقاصد رسائل النور / د. عمار جيدل

٤- جمالية التشكيل الفنّي في رسائل النور / د. سليمان عشراتي

٥- النورسي.. عملاق الفكر الديني في العصر الحديث / هيئة

٦- آخر الفرسان / د. فريد الأنصاري